حديث الهجرة النبوية في شعر عبد الحليم المصري

اعداد الدكتور / حمدى عبد المجيد عبد الرحيم
المدرس بقسم الأدب والنقد بالكلية

عبد الحليم حلمي المصرى بن اسماعيل حسنى المصرى • ولد فى ٢٢ ش شعبان عام ١٣٠٤ هـ الموافق ١٦ من مايو عام ١٨٨٧ م فى قرية « فيشا » احدى قرى دمنهور بمصر • وعبد الحليم هـذا أضيف الى اسمه لقب المصرى تيمنا باسم جده • كما أضيف الى اسمه لفظ حلمى تظرفا ، فأصبح اسم الشاعر كاملا عبد الحليم حلمى المصرى •

التحق بمدرسة دمنهور الابتدائية ، وعنـدما انتقلت الأسرة الى القاهرة ، وقامت فى حى عابدين ، ثم حى المغربلين دخل بعـد الحليم المدرسة المحمدية الابتدائية فأكمل دراسته فيها ، وكان شغوفا بالأدب العربى وأدرك أساتذته فيه هذا الشغف ، فشجعوه حتى أنهى دراسته بنجاح منقطع النظير وقد قاربت سنه السادسة عشرة • وحين بلغ هذه السن كان جسمه قد نما نموا ظاهرا ، وبدأت الحيرة فى نفسه ونفس أبيه فيما يكون من أمره بعد ذلك • أيلحق بعمـل ؟ أيكمل دراسـته الثانوية ، أو يوجه الى المدرسة الحربية ؟ وهنا كان لاطلاعه على كتب الأدب خاصة القصائد التى رويت عن الشاعر محمود سامى البارودى • كان لهذا الاطلاع أثر • فقد صادفت هذه القصائد هوى فى نفسـه لمـا تحمله من معانى الشجاعة والاقـدام والاشـادة بمجـد العرب

والاسلام ، والفخر بحمل السيف والقلم ، فاتخذ من هذا الشاعر مثلة متأسيا بشاعر كبير سبقه الى هذا الميدان وهو حافظ ابراهيم •

فدخل المدرسة الحربية عام ١٩٠٣ م ، وتخرج عام ١٩٠٦ م ضابطا برتبة ملازم وهو فى التاسعة عشرة من عمره •

وسافر الى السودان مزهوا برتبته ، ممتلىء النفس بالآمال الجسام فاذا به يرى آماله قد تحطمت ، لأن الاستعمار قد مكن لنفسه فى مصر والسودان •

ولم يطل الأمر به فى السودان ، اذ تألفت جماعة من الضباط المصريين ، وطالبوا باصلاح الجيش ، وخشى أن تساء معاملته — كما حدث لغيره — ففضل الاستقالة من الجيش وعاد الى مصر ، واتصل بطبقات من الأدباء من بينهم اسماعيل صبرى ، وأحمد زكى ، وأحمد شوقى وسماهم أساتذته •

وفى عام ١٩٠٨ م عين فى ديوان الأوقاف فى وظيفة صغيرة بمرتب قليل ، ونقل ست مرات لجهات متباينة فى الأقاليم والقاهرة ، غامتلأ صدره بالضيق على القصر ومن فيه •

وبسبب انشاده قصيدة تهجم فيها على بعض كبار الدولة حوكم ، وخفض راتبه ثم نقل الى قنا ، ولكنه كان يحمل نفسا أبيه فاستقال ، ثم أعيد تعيينه فى وظيفة بديوان الأوقاف ، وظل فى هذه الوظيفة الى أن وافته المنية فى ٣ من يوليو ١٩٢٢ م وسنه خمسة وثلاثون عاما • وهو فى ريعان الشباب •

وأعلنت الصحف نبأ وفاته مبدية أسفها على علم من أعلام الأدب (١) .

وعلى الرغم من قصر المدة التى عاشها عبد الحليم المصرى فقد أنشد الشعر فى كثير من الموضوعات من بينها : الغزل ، والوطنية والاسلام ، والاجتماعيات ، والوصف ، والمدح ، والرثاء . والذى يهمنا من شعره هو ما قاله فى استقبال العام الهجرى ، وأثر حدث الهجرة فى شعره . وقبل أن نخوض فى هذا المجال نود أن نشير الى أن قصة الهجرة معروفة لا تحتاج الى تنويه ، وكونها بداية لتأسيس الدولة العظيمة ، وانتشارها فى بقاع الأرض معروف أيضا .

ولكن الذى يهمنا من أحداثها ما ظهر من بعض الصحابة من تحد وتضحية قدمها على بن أبى طالب — كرم الله وجهه — حين نام فى فراش الرسول — صلى الله عليه وسلم — وهو يعلم الخطر الذى يستهدفه ، والتحدى واضح فى كلام عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — حين عزم على الهجرة وذهب الى الكفار عند الكعبة ، وصرخ فيهم : من أراد أن تثكله أمه ، أو ييتم ولده ، أو ترمل زوجه فليتبعنى وراء هذا الوادى ، وأعلن أنه مهاجر .

بدين محمد — صلى الله عليه وسلم .

هذان الحدثان وما فى الهجرة من أحداث وعظات أثرت فى نفسه « فبالهجرة صار المسلمون طلقاء بعد التقييد . أحرارا بعد الأسر ،

---

(١) راجع حياة الشاعر بالتفصيل فى الأعلام للزركلى جـ٣ ص٢٨٣، وشعراء الوطنية فى مصر لعبد الرحمن الرافعى ص ٣٤٩ ، وخمسة من شعراء الوطنية لمحمد مصطفى الماحى جـ ١ ص ٢١٥ .

أعزاء بعد الذل ، فما كانت الغزوات والانتصارات التالية فى معظمها الا نتاجا طبيا من نتائج الهجرة (٢) .

لعل هذه الأحداث هى التى دفعت الشاعر الى صوغ قصائده ذلك أننا رأينا من تاريخ حياته أنه تحدى الاستعمار فى السودان ، وقدم استقالته من الجيش وتحدى السلطة حين أنشد قصيدة تهجم فيها على أحد كبار الدولة . فحوكم ونقل فاستقال كما ذكرت آنفا .

كل هذه الأحداث التى مرت بحياته ملأت نفسه بالمرارة وأسى على ضياع الحرية فلم يجد أمامه سوى الاسلام الذى سوى بين الناس جميعا فى الحقوق والواجبات ، والتى كان حادث الهجرة سببا فى شيوع الدولة الاسلامية وانتشار مبادئها ، فأنشد قصائد سنعرض لها بالتحليل والدرس — ان شاء الله — ولم تكن وقفته فى قصائده قاصرة على حدث الهجرة ، وانما تطرق الحديث الى أحوال البلاد الاسلامية التى ترزح تحت براثن الاستعمار لا سيما مصر مسقط رأسه مما يشهد له بانه وطنى مخلص فى وطنيته متدين صادق فى تدينه . يؤلمه ما حاق بالبلاد الاسلامية لذلك عده المؤرخ عبد الرحمن الرافعى من شعراء الوطنية فى كتابه الذى يحمل هذا الاسم ويقول عنه الماحى : « كان سليم العقيدة قوى الايمان عن بصيرة » (٣) وقد ورد ذلك فى شعر المصرى حيث يقول :

ما كنت أتبع دين أحمد عن أبى
انى اتبعت سواطع البرهان (٤)

---

(٢) راجع اشراقات شمس الهجرة المحمدية على الاسلام د/ محمود عبد الفتاح ص ١٥٩ .

(٣) خمسة من شعراء الوطنية لمحمد مصطفى الماحى جـ ١ ص ٢٥٧ .

(٤) ديوان المصرى جـ ١ ص ٥٦ .

ولم يكن من المتوقع أن يقف هذا الشاعر الوطنى المسلم مكشوف اليدين أمام الظلم والقهر وما يثور فى نفسه من رفض لاساليب القمع وتعطش الى الحرية ، فانتهز مناسبة ذكرى الهجرة النبوية اذ كان يجد فيها متنفسا يعبر فيه عما يجول بنفسه ، وما يشعر به من آلام داعيا الى العزة والحرية ٠

ومن يتصفح ديوان المصرى يجد له ثلاث قصائد بمناسبة استقبال الأعوام الهجرية ٠ اثنتين فى الجزء الاول ، والثالثة فى الجزء الثانى ٠

ففى الاحتفال برأس السنة الهجرية ٠ فى استقبال سنة ١٣٢٧هـ ألقى عبد الحليم المصرى قصيدته بكازينو حلوان وهى قصيدة كبرى مكونة من ستين بيتا ذكر فيها حوادث العالم الاسلامى بلدا بلدا ، ثم تحدث عن الهجرة وعن الأحوال السياسية فى مصر ، وأصداء الدستور العثمانى فى تركيا ، وتشجيع مصر فى طلبه ٠ يقول فى مطلع هذه القصيدة :

وضعوا القريض مواضع التيجان
فلأ نسخن بيانهم ببياني

ولأنظمن الى الزمان يتيمة
لترى الزمان مرددا ألحاني

ان كان من ذنب القديمة أنها
أنحت على الأقوام فى طهران(٥)

---

(٥) يشير الى الثورة التى قامت فى فارس ٠

وقضت على مصر بخسف هلالهـا
وطغى بها الزلزال فى الطليـان(٦)

فلقـد يكـفر هـذه الآثـام أن
نـالت مآربهـا بنـو عثـمان(٧)

فهنا نجد الشاعر بعد أن يفخر بنفسـه • يذكر أحداث السـنة الهجرية الماضية • ففيها مات مصطفى كامل صاحب الدعوة الى الوحدة الوطنية ، وزعيم زعماء النضـال فى مصر ، وفيهـا كانت الثـورة فى فارس ، وفيها عاد الدستور العثمانى فى تركيـا الذى أعـاد الأمن الى ربوع البلاد • فشارك الشاعر مع من شاركوا فى الفرحـة بعـودة الدستور ، وأخذ يهنىء بالدستور ، وهنـا نحب أن نشـير الى أن عاملامن عوامل التعلق بالدولة العثمانية • فالشـاعر حين يهنىء الدولة امتزج الدين بالوطنية فى مفهوم العصر وفى فكر الزعماء فى مصر كان العثمانية يفعل ذلك ، لأنه ينظر اليها على أنها رمز الوحدة الاسلامية ، وهو يتطلع الى أن تعين مصر على أن تنال من الحـرية مثلما نـال العثمانيون حريتهم فيقول :

يهنيكمو العـام الجديـد وليتـه
قـد ألحـق الظمآن بالريـان

اليـوم نغبطـكم عليـه وربمـا
صرنـا كـلانا فى غـير مسـيان

---

(٦) يشير فى الشطر الأول الى موت مصـطفى كامل ، والثانى الى زلزال ايطـاليا •

(٧) ديوان المصرى جـ ١ ص ٤٩ • يشير الى الدستور العثمانى •

يا أخت مصر ويـا كفيلـة أمرهـا
ليس الاخـاء تنـاقض الاخـوان

تالله لـم نحقـد عليـك وانـما
قـد يهنـا العـانى فينسى العانى(٨)

فالشاعر هنا يطلب من الدولة العلية (العثمانية) أن تساعد مصر على تحقيق أمانيها فى الحرية •

وبعد أن يتحدث عن موت مصطفى كامل ، لأنه ينظر اليه على انه زعيم الوطنية فى مصر وعن حزنه على موته ، وبعـد أن يشـارك فى الفرحة بعودة الدستور العثمانى • أخذ يتحـدث عن السـودان التى وقعت فريسة للاستعمار الانجليزى فى استفهام ينبىء عن أسى دفـين فيقـول :

ما لى أرى السـودان طعمـة آكـل
هل أطمعتهم مصر فى السـودان(٩)

ثم يتحدث عن ايران فيؤلمه طغيان الشاه مع شعبه فيقول :

الشـاه أكبر نفسـه وجنـوده
فتماديـا فى الغى والطغيـان

ما ذنب شعب يسـترد حقوقـه
لـم يستهن بالحق غـير جبان(١٠)

---

(٨) ديوان المصرى ج ١ ص ٥٠ •
(٩) ديوان المصرى ج ١ ص ٥٠ •
(١٠) ديوان المصرى ج ١ ص ٥١ •

ثم يتحدث عن تونس والتونسيين ، ويحذرهم من صحبة الألمان الذين اعترفوا لمثلى فرنسا بحق امتلاك تونس وأوضحوا انهم مستعدون لتأييدها • يحذرهم بقوله :

انا نخاف من الوفاق عليكمو
فتحذروا من صحبة الألمان(١١)

ثم ينتقل الى الحديث عن الهجرة فيقول :

يا حقبة سطعت بدارة أختها
كالتاكما فى العين حسناوان

سقيا ليوم فى ظلال ربيعه
نزل الرسول بأشرف البلدان

كانت مراغ الوحش قبل نزوله
فغدت مراج الحور والولدان

فكأنها فى البيد روض ناضر
طاب الجنى فيه وغاب الجانى

لهفى على العهد الذى زأرت به
أسد الحطيم الى فنى عدنان(١٢)

وهنا لم يكتف الشاعر بسرد الحوادث بل كان حديثه عن وحى الهجرة ، فالرسول ﷺ حين نزل تلك البلدان غير وجه الحياة فيها•لقد

---

(١١) ديوان المصرى ج ١ ص ٥٢ ٠
(١٢) ديوان المصرى ج ١ ص ٥٢ ، ٥٣ ٠

كانت قبل مجيئه مصدرا للوحوش والجناة ، وأصبحت بعد حلوله مسرحا للحبور ومكانا آمنا ، وعاشت البلاد فى هدوء واطمئنان • وفى قوله لهفي على العهد الذى زأرت به أسد الحطيم • هنا يذكر المسلمين المعاصرين له بالمسلمين الأوائل الذين يشبهون الأسود ، ويود أن يكون المسلمون فى عصره مثل آبائهم السابقين فى قوتهم وعزتهم •ثم يتحدث عن مزايا الاسلام فيمدح الرسول وصحبه الأبطال فيقول :

لله أمتك التى شرفت على
شرفات ذاك القصر من غمدان

نكست لواء الكفر يخفق ظله
وحمت لواء دائم الخفقان

جابت عراص الدهر وهى مدلة
مثل الأسود تجوب فى خفان(٤١)

الضاربون الدهر ضربة لازب
النازلون منازل العقبان

الجائلون بكل أبيض ناصع
الخائضون بكل أحمر قانى(١٥)

والملاحظ فى هذه الأبيات التى مدح فيها رسول الله ﷺ وصحبه الكرام • أنه مدحهم بصفات تتلاءم مع ما يرومه من معان • فهم أبطال شجعان جابوا الأرض الواسعة مثل الأسود والعقبان • وكأنه

---

(١٣) غمدان : هو قصر النعمان بن المنذر وكان يضرب به المثل .

(١٤) عراص : جمع عرصة ، وهى الجزء المتسع من المكان ، وخفان: جبل بتهامة مشهور بالأسود .

(١٥) ديوان المصرى جـ ١ ص ٥٥ .

يريد أن يقول لأبناء وطنه : هؤلاء هم القدوة فلا تركنوا ولاتستسلموا وهو يتحسر على أبنـاء وطنه • فما كان منه الا أن يذكر الأمجـاد الماضية ، لينفس عن نفسه ما يشعر به من آلام •

ثم يختم القصيدة بالحديث عن الأحوال السياسية فى مصر فيقول :

يـا ناصرين النيـل أفلح سـعيكم
لا ينثـنى ذو السـعى بالخـذلان
هـذا هـو الدسـتور فى أغلالـه
متخـلص من راحـة السـجان
الله يطلقـه ويصـدع قيـده
ويحـل منى عقـد بلسـانى
لا تسـكنوا للترهـات نفوسكم
الـدار بالسـكان لا البنيـان
المـرء من تشـكو لـه بجيرانـه
لا المـرء من يشـكو الى الجيران

•• •• •• ••

العيش معـنى العـز فى ألفاظـه
والمـوت فـيه للهـوان معـان
يـا أمـة الاسلام حسبك ما مضى
القبـر والانسـان ماتقيـان
ان كان أمسـك منـك ولى ساخطا
فغد أحـق الدهـر بالاحسـان(١٦)

---

(١٦) ديوان المصرى جـ ١ ص ٥٦ ، ٥٧ •

ومن الملاحظ أن الشاعر هنا يدعو شباب النيل الى الثورة ضد الأعداء مشيرا الى أن الانسان مهما عاش فلابد أن يدخل القبر ، وهو يرى أن الحياة الحقيقة فى العز ، وأن الموت أهون من الذل • وان كان الماضى ولى ففى الغد يمكن للانسان أن يفعل شيئا حسنا يحسب له •

والقصيدة الثانية قالها فى استقبال سنة ١٣٢٨ هجرية وهى لا تخرج عن فكرته فى القصيدة الأولى ، فلقد تناول فيها البلاد الاسلامية ، وتحدث فيها عن الهجرة النبوية ، ودعا شباب مصر الى الثورة على الأعداء ، ولم ينس الدولة العلية (العثمانية) رمز الوحدة الاسلامية • يستهل هذه القصيدة بتحية الهلال فيقول :

رأى الهلال فحياه بغير فم
أحلى التحيات أخلاها من الكلم(١٧)

ثم يتحدث عن الدولة العلية فيقول :

فى الله يا ثغر (قسطنطين) ما احتملت
أبناؤك الغر من هم ومن ألم(١٨)

ويتحدث عن طهران عن الشاه فيقول :

لا فرق الله طهران ملتئما
من الجنود تمادى غير ملتئم

سعى الى الشاه جرارا يقول له
خل الجواد وجرب مشية القدم

---

(١٧) ديوان المصرى جـ ١ ص ١١٣ •
(١٨) ديوان المصرى جـ ١ ص ١١٣ •

مضى زمانك فاتركه لصاحبه
اذا رأينا زمان الظلم لم يدم(١٩)

وهنا يهجو الشاه ، لأنه لا يهمه الحاكم ، بل الذى يهمه فى المقام الأول هو الشعب .

ثم يتحدث عن الحالة فى مصر فيقول :

ماذا يود العدا لا ورد هرهمو
ان الكنانة لم تملك ولم تسم
أيطلب السبق ممن بات فى شرك
ويطلب النطق ممن بات فى بكم(٢٠)

وهنا يشير الى تقييد الصحافة فى مصر .

ثم يدعو أبناء النيل الى الثورة على المعتدين فيقول :

يا فتية النيل جدو السير تغتنموا
تلك العلى فهى تدعو كل مغتنم(٢١)
ولا تمت عزمكم من عثرة عرضت
فصحة الرأى تمحو عثرة القدم(٢١)

ثم ينتقل الى الحديث عن الهجرة فيقول :

يسرى الى خير من تسرى الركاب له
وخير من حدثته الوحوش فى الأكم

---

(١٩) ديوان المصرى جـ ١ ص ١١٨ .
(٢٠) ديوان المصرى جـ ١ ص ١١٩ .
(٢١) ديوان المصرى جـ ١ ص ١١٩ ، ١٢٠ .

أقـام بالغـار أيـاما وصـاحبه
والطير بالباب لم تفزع ولم تقم(٢٢)

ويختم القصيدة متحسرا على المسلمين الضائعين مستغيثا بالرسـول ﷺ أن يدرك هذه الأمم فيقول :

قل للنبى اذا مـا جـزت سدتـه
يـا أشرف الرسل أدرك أشرف الأمم

لا زال دينك فى هـام الزمان مهى
وفى يمين المعالى هامـة العـلم(٢٣)

وفى هذه القصيدة يظهر ألمه على الأمة الاسلامية وهى تكاد تشبه القصيدة الأولى فى موضوعها ومضمونها اذ فيها الحـديث عن الأمـة الاسلامية ، وما نالها من ضعف وهـوان ، وفيها تحميس على الثـورة ضد الأعداء ، وفيها ذكر لأمجاد الاسلام فى العهد المـاضى ، وفيهـا استغاثة بالرسول ﷺ .

أما القصيدة الثالثة التى قالها سنة ١٣٣٠ هجرية فقد كـانت معظمها للحديث عن الحرب الطرابلسية التى دارت رحـاها على أرض ليبيا سنة ١٩١١م ، ولـم يتجـاوز حديثه تلك الحـرب الا الشىء القليل ، ومع أن المناسبة التى قيلت فيها القصيدة هى ذكرى الهجـرة النبوية الا انه لم يذكر سوى بيت واحد يتحدث فيه مباشرة عن هجرة المختار ﷺ فيقول بعد أن يستهل القصيدة بتحية الهلال مكبر محمدا :

---

(٢٢) ديوان المصرى جـ ١ ص ١٢١ .
(٢٣) ديوان المصرى جـ ١ ص ١٢٢ .

أذكرتنى هجـرة المختـار فانبعث
منى بنفسى الى الأستار والحجر(٢٤)

لقد سيطرت هذه الحرب على مشاعره ، وكان الألم يعصر قلبه على ما حدث فى ليبيا من وحشية ، فأخذ يصـور ما اقترفته ايطاليه مـع أهل طرابلس الآمنين من فظائع تقشعر لها الأبدان فيقول :

بنى طرابلس عن مجتـاز سـاحتكم
حتى يبالغ فى تحنـان معتـذر

.. ..

يـا ساحة حـار عزريل بظلـمتها
حتى تعثر بالأرواح فى الحفـر

كم أشـيب بـاب والقرآن فى يده
سهران تسعده التقوى على السـهر

أمـده الله بالحسـنى وقربـه
غبات يقبـس نـور الله بانبصـر

أجرى العـدا دمه أثنـاء مصحفه
غرد مقتـل عثمـان الى البشر(٢٥)

واستمر فى تصوير فظائع الاستعمار من قتل للكبـير والصـغير والرجل والمرأة ومن انتهاك للحرمات . معلنا عن أسـاه وحزنـه لمـا لحقهم من أذى فى معظم القصـيدة ، ولم يجد أمامه الا أن يستغيث

---

(٢٤) ديوان المصرى جـ ٢ ص ١٠٤ .
(٢٥) ديوان المصرى جـ ٢ ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

بآدم أبى البشرية ــ بعد أن ضاقت به السبل ــ ليخلص النـــاس من شرور الظالمين الذين يشبهون الوحوش فى الأرض فيقول :

يا آدم اهبط الى الأرض حيث ترى
بنيك كالوحش أنى بـــودرت تثر(٢٦)

ويختم القصيدة بدعوة المصريين الى الثورة على المعتدى الظـــالم بالتعاون والوحدة والتجمع ، والا يستهينوا بأنفسهم وألا يذهبوا العمر بلا عمل ، وضرب لهم المثل بالنمل الضـــعيف الذى يمكـــنه أن يبنى الجبال ، ويثقب الصخر مع أن حجمه صغير ، وهو من أضعف الكائنات، فبالتعاون والعمل يستطيع الانسان أن يفعل الكثير والكثير :

أنحـــرث الأرض فى مصر ونزرعهـــا
ويجتبى التـــرم منهـــا يافع الثمر

تجمعـــــوا ان من يجمـــع أنـــامله
يفن المحيط بكـــفيه على العصـــــر

لو تجمعون ثنيت الضعف حال قوى
ومعظم النـــار من مستصغر الشرر

انى لأضرب فى شـــعرى لكم مثـــلا
خذوه عـــن شـــاعر للدهـــر مختبـــر

النمل وهى أقـــل الكائنـــات قـــوى
فى الطود تثقب ماستعصى من الصخر(٢٧)

---

(٢٦) ديوان المصرى جـ ٢ ص ١١١ .

(٢٧) أصل الكائنات : أضعف الكائنات ، والطود : الجبل .

ولو أرادت لشـــادت فى النقا جبلا
فى جنبـــه تنعت الآمـــال بالقصر(٢٨)

فانظر الى حجمها واعجب لقـــدرتها
سبحان مودعها الالهـــام فى الفطـــر

لولا التعاون ما شادت ولا ثقبت
ولا ضربنا بها الأمثال فى السير(٢٩)

وهكذا أصبحت ذكرى الهجرة النبوية مجالا لدراســـة أحـــوال المسلمين ، ولم تكن مجرد سرد تـــاريخى •

ومن الواضح فى شعر عبد الحليم المصرى الذى أنشده بمناســـبة ذكرى الهجرة النبوية أنه شعر حزين باك على ما لحق الأمة الاسلامية من ضعف ،وما حل بهم من أذى على يد الغاصبين الظالمين •

وهو لم يكتف ـــ كما قلت ـــ بالحديث عن مصر مســـقط رأسه ، ولكنه تناول البلاد الاسلامية فذكر طهران والسودان وتونس وطرابلس وغيرها من البلاد ، لأنه كان يرى أن كل بلد اسلامى بلده • وهنا يدفعه شعوره الأليم المنبعث من نفس وطنية لاقت من المحتلين الأسى والعذاب، فقد خاب أمله الذى كان يتطلع اليه حين عين فى وظيفة ملازم ، وذاق المرارة فى حياته بسبب المحتلين ، فصب جام غضبه عليهم تدفعه الى ذلك عقيدته الاسلامية الراسخة •

ولقد كانت مشاركته فى تحية الدولة العثمانية نابعة من عقيدته ، فالدولة العثمانية كانت ـــ كما قلت رمزا للوحدة الاسلامية وفى بقائها

---

(٢٨) الفقا : الجبـــل •
(٢٩) ديوان المصرى جـ ٢ ص ١١٣ ، ١١٤ •

قوية، وفى صلاح حالها صلاح للمسلمين الذين يودون الخلاص على يد دولة الخلافة العثمانية،وهذا الخلاص لا يتأتى الا بالقوة فى مقاومة المعتدى ، ولذلك نجد الشاعر استعاد أمجاد الماضى ، وذكريات السلف الصالح بعد أن فقد نظراءهم فى عصره .

فعندما يتحدث عن الهجرة مثلا يذكر معانى القوة من بطش وشجاعة واقدام وبطولة جعلت الدنيا بأسرها تخضع لهم ، وأراد أن يكون المسلمون الذين يعيشون فى حياته مثل هؤلاء السابقين ، فتقوى شوكتهم ويحققون الأمل فى الحرية والاستقلال .

فتارة نجده يصور فظائع المعتدين ليحث المسلمين على الجهاد ، وأخرى يحضهم مباشرة لبذل النفس والنفيس لاخراجهم من ديارهم.

نظرة فنية فى شعره :

العاطفة عنصر من أهم العناصر فى النص الأدبى « وبقدر ما يتهيأ لهذه العاطفة من قوة الباعث تكون قوتها ، ويكون أثرها فى التعبير » .

والعاطفة الدينية من أقوى العواطف ، ومن خلال دراستى تبين لى أن المعركة بين الاسلام وخصومه كانت قوية وشرسة ظهرت فى تمزيق وحدة المسلمين واحتلال البلاد فى حياة عبد الحليم المصرى .

وقد هزت هذه الأحداث عاطفة الشاعر فعبر عما تجيش به عاطفته ففى قوله :

يا أرض برقة من دار ومزدرع
تسقين بالدم أم تسقين بالمطر

---

(٣٠) الاتجاه الاسلامى فى الشعر المصرى المحافظ للدكتور / نبيل سليمان طبوشة ص ٢٩٠ .

أمست بطاحك خصباء البقاع فما
تفرق العين بين الماء والمدر

مروعة الأهل حسرى عن كوارثها
يجتازها الدهربين الخوف والحذر(٣١)

نحس هنا بعاطفة صادقة مفعمة بالأسى ، لما أصاب المسلمين من ضعف وهوان واضطهاد وظلم ونحن اذ نستمع الى هذه الأبيات نحس انعطافا نحو البلاد التى تعرضت للعدوان ، وهذا الاحساس يدعونا الى أن نستجيب لدعوة الشاعر بالبذل والعطاء ومعنى ذلك أن الشاعر قد نجح فى اثارة عواطفنا وقد أشركنا معه فى تجربته الشعورية التى ألمت به • وتلك آية من آيات الصدق فى التعبير عن الطافة •

ولا ننسى أن نشير الى أن بؤس الشاعر ورقة حاله ، وما ابتلى به فى حياته كان له أثر فى عاطفته الصادقة ، وتجربته التى عبر عنها •

ولقد نقل الينا ذلك الشعور من خلال شعره • فأرض برقة من كثرة ما راح فيها من ضحايا ، وما أريق من دماء يختلط الأمر فيها على العين من شدة الهول وقد ظهر ذلك حين صور الهول الذى وقع فيه سكان برقة والقتل المستشرى الذى جعل الدماء تسيل أنهارا تسقى الديار والزروع بدلا من المطر الذى تعيش عليه هذه المنطقة ولا تفرق العين بين الماء والحصى من الفزع والكوارث •

والصورة الشعرية عنصر من عناصر التعبير عن العاطفة وعن الأفكار الدينية فى أشكالها السياسية •

---

(٣١) ديوان المصرى ج ٢ ص ١٠٦ الخور : الضعف •

فمن الصور التى ترسم مشهدا عاما نفذ فيه الشاعر بخياله الى الماضى ، فاستحضر صورة الرسول ﷺ وأصحابه الأبطال :

لهفى على العهد الـذى زأرت بـه
أسـد الحطـيم انى بنى عدنـان

عملوا على الدين الحنيف وكيـده
والدين يمـرح فى حمى الديـان(٣٢)

فهنا يصور الرسول ﷺ وأصحابه بالأسود ، ويصـور الدين بأنه انسان يمرح فى حمى الديان فى فرح وسرور .

ويمدح أمة الاسلام ، وأصحاب الرسول ﷺ :

جابت عـراص الدهر وهى مـدلة
مثل الأسـود تجوب فى خفـان

الضاربـون الدهـر ضربـة لازب
النازلـون منـازل العقبـان(٣٣)

وهنا يمدح أصحاب الرسول ﷺ ويصورهم بالأسود والعقبان، وهم يخوضون المعارك بالسيوف البتارة ، ويرسم الشاعر بالكلمـات صورة هؤلاء الأبطال يجسد فيها مشاعره حين افتقد أمثالهم فى زمنه .

ومن الصور التى رسمها الشاعر صورة الهلال الأحمر فى قصيدته التى أنشدها فى رأس سنة ١٣٣٠ هجرية التى تحدث فيها عن الحرب الطرابلسية فيقول :

---

(٣٢) ديوان المصرى ج ١ ص ٥٣ .
(٣٣) ديوان المصرى ج ١ ص ٥٥ .

هلالنا الأحمر المخضوب من دمنا
يبكى ولكن بدمع غير منهمر
حتى كأن بياضا حول حمرته
عيون يعقوب من حزن ومن ضجر
كأنه وهو مثل القوس مختضب
فى شاسعات المرامى بالدم الهدر
قميص يوسف يعلو صفحتيه دم
أو ثوب عثمان معروضا على مضر(٣٤)

فالشاعر يرسم لنا صورة الهلال الأحمر وهو يبكى ، ويشخصه أمام أعيننا ، ويذكرنا بمواقف مأساوية فى التاريخ الدينى منها ابيضاض عيون يعقوب حزنا على يوسف ، وتخضيب قميص يوسف وثوب عثمان بالدم ظلما وبهتانا مما يجعلنا نقف من هذه الأحداث موقف الحزن ، ومن هذه الدماء موقف التقديس • وهى صورة حزينة مستمدة مما ذاقه أهل طرابلس من مرارة وآلام بسبب العدوان الايطالى ، وهى صور تحرك المشاعر ، وتثير الهمم • وهذا ماقصده عبد الحليم المصرى حين استعان بالصورة فى توصيل عاطفته للمسلمين•

ولو نظرنا الى المعانى والأفكار فى شعره لوجدناها جديدة مواكبة لعصره ، فقد تأثرت أفكاره بأحداث عصره والا كانت جوفاء تسير فى واد والأحداث فى واد آخر •

فالاحتلال الأجنبى لمصر وتفكيك أوصال العالم الاسلامى كانت شغله الشاغل •

---

(٣٤) ديوان المصرى جـ ٢ ص ١٠٩ ، ١١٠ •

ولما كان هذا الشاعر شاعرا وطنيا مسلما يوجه أفكاره الى مختلف طوائف الأمة معبرا عن آلامه وآماله كانت ألفاظه سهلة وعباراته واضحة لا غرابة فيها باستثناء القليل النادر .

وبذلك استطاع أن ينقل أفكاره وأحاسيسه الى الناس على اختلاف درجات ثقافاتهم ، وهناك أسباب أخرى جعلته ينهج هذا النهج منها اطلاعه على الدواوين الشعرية وذكاؤه ومحاولته اثبات وجوده بين الشعراء المشهورين في عصره .

ونجده يستخدم من الألفاظ والعبارات ما يؤثر في نفس السامع ويظهر ذلك في حديثه عن حرب طرابلس في قصيدته التي استقبل بها عام ١٣٣٠هـ :

كم أشيب بات والقرآن في يده
سهران تسعده التقوى على السهر

أمده الله بالحسنى وقربه
فبات يقبس نور الله بالبصر

أجرى العدا دمه أثناء مصحفه
فرد مقتل عثمان الى البشر

وكم عجوز اذا آنزلت بريدتها
أنزلتها من كتاب حافل السير

سقا العفاف محياها وما برحت
فهيبة الشيب تحكى البكر في الخفر(٣٥)

---

(٣٥) الخفر : شدة الحياء .

مصونة العرض جـال الطهر فى دمها
كما يجـــول نقى المـاء فى الزهـر

فريسـة بـين ذؤبـان مقسـمة
وجنة أنزلتـــها الجن فى ســـقر

وكم رضـيع كأن المهـد ضن بـه
كما يضن بخيـل القـوم بالدرر

كـأنه مهجـة فى الصـدر خافقـة
أو مقـلة طى جـفن جمة الحـور

أصلوه نـارا وفاتوا لحمـه قطـعا
تنوشها الطـير بين الورد والصـدر

ضنائع الوحش جاعت فى حبائلهـا
وأطلقت من مثاويها على جزر(٣٦)

فهنا نجد الشاعر استعمل الألفاظ السهلة الواضحة ، وهى ألفـاظ تثير فى النفس مشاعر الألم والحزن مثل قوله : أجرى العدا دمـه أثنـاء مصحفه ، واستباحوا من كرامتها ، وفريسة بين ذؤبان مقسمه ، أصلوه نـارا ، وفاتوا لحمه قطعا ، وتنوشها الطير .

ولم يكن هذا من جانبه مجرد حـديث يسرده ، ولـكنه أراد أن يحفز المسلمين على الثورة ضد الأعداء الذين مثلوا بالمسلمين رجـالا ونساء وأطفالا صغارا ، وأن يصنع جوا من الكـراهية والسخط ضـد المستعمر ، وأن يبعث التعاطف مع الشعب الليبى .

---

(٣٦) ديوان المصرى جـ ٢ ص ١٠٨ ، الحبائل : الشباك ، والجـزر كل ما يجزر .

وعندما يتحدث عن الهجرة يتذكر ما كان الرسول ﷺ وأصحابه من قوة ، فيذكر المسلمين بما كان عليه هؤلاء الأبطال ، ليتأسوا بهم ، ولذلك نجده يستعمل الألفاظ الدالة على معنى القوة فى قوله :

لهفى على العهد الذى زأرت به
أسد الحطيم الى فنى عدنان(٣٧)

وقوله :

لله أمتك التى شرفت
على شرفات ذاك القصر فى غمدان(٣٨)

نكست لواء الكفر يخفق ظله
وحمت لواء دائم الخفقان

جابت عراص الدهر وهى مدلة
مثل الأسود تجوب فى خفان(٣٩)

الضاربون الدهر ضربة لازب
النازلون منازل العقبان

الجائلون بكل أبيض ناصع
الخائضون بكل أحمر قانى(٤٠)

---

(٣٧) ديوان المصرى جـ ١ ص ٥٣ .
(٣٨) غمدان : قصر النعمان بن المنذر .
(٣٩) خفان : جبل كان مشهور بالأسود .
(٤٠) ديوان المصرى جـ ١ ص ٥٥ .

وهنا استعمل من الألفاظ والعبارات ما يلائم فكرته فهو يود ان يكون المسلمون فى قوة ورفعة مثل آبائهم الذين تربوا فى المدرسة المحمدية ، ويأسى على ضياع تلك القوة ، ويتطلع الى عودتها لتنقذ الأمة الاسلامية من عدوها وتضع لها العزة والكرامة ولذا فهو يستعمل الألفاظ المناسبة للمعانى التى يريدها مثل : زأرت أسد الحطيم، وأمتك نكست لواء الكفر ، وحمت لواء دائم الخفقان ، وجابت عراص الدهر ، والنازلون منازل العقبان •

فكل هذه الألفاظ والجمل قوية ، أو تدل على معنى القوة • وهى مناسبة للحث على النضال ، واستثارة الهمم لمقاومة الاحتلال ، وتعبئة الشعور الدفاع عن الأراضى الاسلامية ، ومحاولة التشبه بالسلف الصالح •

وفى شعره دعوة الى الوحدة وعدم الفرقة ، وتقويت هذه الدعوة بفعل ما مر بالأمة من أحداث ، وما أحاط بها من أخطار • وكان التجمع لمواجهة العدو ضرورة يفرضها الخوف على المسلمين ، وتظهر تلك الدعوة بوضوح فى قوله :

تجمعوا ان من يجمع أنامله
يفز المحيط بكفيه على القصر

لو تجمعون شتيت الضعف حال قوى
وعظم النار من مستصغر الشرر

انى لأضرب فى شعرى لكم مثلا
خذوه عن شاعر للدهر مختبر

النمل وهى أقل الكائنات قوى
فى الطود تثقب ما استعصى من الصخر

ولو أرادت لشادت فى النقـا جبلا
فى جنـبه تنعت الآمـال بالقصـر

فانظر الى حجمها واعجب لقدرتهـا
سبحان مودعـا الالهـام فى الفطـر

لولا التعاون ما شـادت ولا ثقبت
ولا ضربنا بهـا الأمثـال فى السير

وصورة النمل التي عرضها كأنه يرد بها دعوة المتقاعسين بحجـة الضعف فى مواجهة العدو • فان الضعف اذا تجمع أصبح قوة تصـنع المستحيلات كما تفعـل النملة وهى من أضـعف الكائنات على وجه الأرض •

وقد سار عبد الحليم المصرى فى قصائده الثلاث التى استقبل فى كل واحدة منهن سنة هجرية • سلك طريق القدماء فى بنـاء قصـائدهم على أساس من وحدة الوزن ووحدة القافية •

فالشاعر لم يخرج فى أوزانه عن دائرة الأوزان العربية بل توقف عند البحـور التقليدية للقصـيدة العربية(٤١) ، وهو يلتـزم قافيـة واحـدة •

هذا من ناحية الموسيقى الخارجية الظاهرة •

أما من ناحية الموسيقى الداخلية الخفية فانه نجح فى التعبير عن عاطفته الصادقة تعبيرا صادقا أدى فيه اللفظ دوره فى نقـل احساس الشاعر وفكره الى المتلقى « حتى لتحس وأنت تستمع الى القصـيدة أو تقرؤها أنك أمام بناء فنى متكامل قد وضع فيه كل شىء فى موضعه

---

(٤١) القصـيدة التى قالهـا فى استقبال ١٣٢٧هـ من الـكامل ، والقصيدتان الأخريان من البسيط •

فى دقة واحكام »(٤٢) وأنت تحس بالتناسق الفنى حسب الوجدان • استمع اليه وهو ينشد تلك القصيدة لما ثـارت الحـرب بين ايطاليـا وليبيا فى مطلع سنة ١٣٣٠ هجرية يقول :

فيما السلاح وما أبصرت منقصـة
للوحش الا ازدياد النـاب والظفر
بينا ترى المرء فى ثوب الهـدى ملكا
تراه فى جلبـات الحـرب كالنمـر
بنـوش لحم أخيـه يستقى دمه
كالوحش فى الغاب والأسماك فى الغدر(٤٣)

يا حامل السيف والـدرع المنيعة كم
أرديت نفسا وكم شققت من أزر(٤٤)

اذا الحضـارة كانت نقـمة وأذى
فقد تعد وحوش الغاب فى الحضر(٤٥)

أعد قراءة هذه الأبيات مرة أخرى ، وتسمع الى الرنين الصوتى المنبعث منها ، فانك تراه خافتا لاهثا يدل على الاعياء والنصب والعاطفة التى تمتلىء أسى وحزنا ، فهى موسيقى ملائمة لهـذا الوجدان الذى تملك الشاعر بكل المرارة والألم • فهى ذات جـرس موسـيقى هادىء ضعيف ينبىء عن نفس انهارت أمـام المواجع وسقطت تئن فى أعيـاء واحتجـاج •

---

(٤٢) أحمد محرم شـاعر العروبة والاسـلام د/ محمـد ابراهيم الجيـوش ص ٢٥٩ •

(٤٣) العـذر : جمع عذير •

(٤٤) زير : جمع ازار •

(٤٥) ديوان المصرى جـ ٢ ص ١١٢ •

واستعمل من الألفاظ ما يناسب ذلك الشعور الأليم لما حل بأهل تلك البلد من عذاب مثل قوله : فيها السلاح ، ومنقصة للوحش ، والعاب والظفر ، وجباب الحرب كالنمر ، وينهش لحم أخيه يستقى دمه الوحش ، والأسماك فى الغدر ، وكم اراديب نفسا ، وكم شققت من أزر ،واذا الحضارة كانت نقمة •

وهذه الموسيقى الخفية ، وهذا التناسق يدل على صدق التجربة الشعرية عند هذا الشاعر • وبالجملة فان شعر عبد الحليم فى ذكرى الهجرة النبوية أو حدث الهجرة المحمدية يعد صدى لاحساس صادق بقيمة الحرية ، وايمان قوى بقدرة المسلمين على رد كيد المعتدين ، وذلك بالعودة الى ما كان عليه السلف الصالح ، وتمسك بالدين القويم اذا أرادوا النجاة من الأخطار التى يتعرضون لها •

وأن شعره فى هذه المناسبة ، استغله فى الحديث عن البلاد الاسلامية ، وما لاقته من عذاب وظلم واضطهاد بسبب الاحتلال ، وربط فى شعره بين الماضى والحاضر • بين ما كان عليه المسلمون الأوائل من قوة وعزة ، وما صاروا اليه من ضعف وهوان محمسا المعاصرين له من أجل الدفاع عن الأوطان المغلوبة على أمرها •

اعداد الدكتور/ حمدى عبد المجيد عبد الرحيم
المدرس بقسم الأدب والنقد بالكلية